الرواية الشفوية وصنعة التاريخ..

ملاحظات أوليّة

أ. د. أحمد الشكري

أستاذ الدراسات العليا بمعهد الدراسات الإفريقية-
جامعة محمد الخامس- الرباط - المملكة المغربية

(إذا لم تكن راضياً عن السيرة التاريخية التي كتبها الآخرون عنك ولك؛ فاكتب تاريخك الخاص).

الروائي النيجيري شينوا أشيبي/ Chinua Achebe، 1958

خلال العقود الثلاثة الماضية أُتيحت لنا فرصة الانغماس في تاريخ إفريقيا الغربية، أو ما كان يُعرف باسم «بلاد السودان»[1] لدى أصحاب المصادر العربية القروسطوية، ولمّا كانت «الرواية الشفوية»

دولة غانا الحالية لا تمُتّ بصلة إلى مملكة غانة القديمة، إن على المستوى التاريخي أو الجغرافي، فإنّ الأمر يكاد يكون مشابهاً لدولة السودان الحالية، حيث كانت المصادر تميّز قبائل سودان وادي النيل بـ«الحُبُش» و«النوبة» و«البجة»، وقلّما أدرجتهم تحت اسم «السودان» إلا على وجه التعميم.

ويمتد مجال بلاد السودان من المحيط الأطلنتي (في جزئه السنغامبي) غرباً، إلى حواشي بحيرة التشاد شرقاً، فيما تنتصب الحدود العمودية بين الضفة الجنوبية للصحراء الكبرى ومقدمة نطاق الغابات الاستوائية؛ وحسب الإحداثيات المعاصرة؛ تنحصر بلاد السودان فيما بين خطي عرض ١١ و١٧ شمالاً. وبجانب هذا الاصطلاح الأصيل، الذي تواضع على تداوله أصحاب مصادر العصر الوسيط والحديث، يروج في الدراسات الأكاديمية عددٌ

(١) استعملت المصادر العربية اصطلاح «السودان» تمييزاً لهم عن «البيضان» المنتشرين في الفضاء الصحراوي؛ وإذا كانت

أحد المصادر الأساسية في كتابة تاريخ المنطقة؛ فقد وجدنا أنفسنا متوثّبين للاستفادة من العناصر الإخبارية التي توفرها، ومتوجّسين في كيفية استغلالها والتفاعل معها وفق مقتضيات صنعة التاريخ؛ كما الشأن بالنسبة لباقي المصادر، محلية أو أجنبية، ونتيجة لهذه التجربة الفريدة تهيأت لنا مجموعة من الملاحظات، نود استعراضها بغرض إخصابها.

تُطلعنا مجموعة من الدراسات على أنّ بعض القبائل المنتمية لإفريقيا جنوبي الصحراء قد عرفت الكتابة منذ بداية التاريخ الميلادي، وإذ نسجل هذه الحالة الاستثنائية؛ فإنّ الظاهرة العامّة والمهيمنة لدى شعوب المنطقة إلى غاية دخول الاستعمار الأوروبي، عند ملتقى القرنَيْن ١٩ و٢٠م، تشي بأنّ منظومة الثقافة الشفاهية ظلّت متحكّمة في جلّ مناحي الإنتاج المعرفي: تاريخ، شعر وأدب، طب، هندسة.. إلخ.

صحيحٌ أنّ الثقافة العربية الإسلامية كانت لها مساهمةٌ فعّالة في بلورة صنعة التأليف لدى فئة من الفقهاء المنتمين لبلاد السودان أو «إفريقيا الغربية» بحسب الاصطلاح المعاصر، وذلك منذ نهاية القرن ١٥م، على أنّ هذه المبادرة لم تتمكن من تقعيد تقاليد التأليف بالمنطقة وترسيخها، ولربما جاءت لتثبيت تقاليد الرواية الشفوية في انتظار تقعيد صنعة التأليف والتدوين!

ما طبيعة «الرواية الشفوية»؟ وكيف تبلورت قصة الصراع ما بين منظومة «الرواية الشفوية» مع منظومة تقاليد التأليف، التي انتهت بتقدير «الرواية الشفوية»، مما جعلها تتبوأ مكانةً أساسية ضمن لائحة مصادر تاريخ إفريقيا منذ مطلع القرن العشرين؟

بعض الخلاصات العامّة:

إنّ مجموع المواد المصدرية المتعلّقة بتاريخ بلاد السودان- إلى نهاية ق١٩م- تعاني من فقرٍ مدقع، ذلك أنّ مُحصّلتها لا تطرح من المعلومات ما يساعدنا على إزاحة الظلال الكثيفة المحيطة بتاريخ المنطقة، مما يعيق بشكلٍ جديٍّ كلّ محاولة تستهدف القبض على اللحظة التاريخية السودانية في أبسط مقوّماتها، فأحرى أثناء غليانها في ظلّ الفسيفساء الإثنيّ والسياسيّ لبلاد السودان؛ خصوصاً قبل ق١٠م، ثم بعد نهاية ق١٦م.

وإذا اقتصرنا على الفترة المتراوحة ما بين القرنَيْن ٨ و١٨ للميلاد؛ فيمكننا تصنيف المواد المصدرية إلى قسمَيْن أساسيَّيْن:

- «المصادر المحلية»: تشمل- بجانب الرواية الشفوية والآثار المادية- كلّ ما أنتجه ودوّنه السودان بغاية التصنيف التاريخي، جزئيّاً أو كليّاً، عفواً أو قصداً.

- «المصادر الأجنبية»: كلّ ما خلّفه العرب والأوروبيون من كتاباتٍ ذات الصلة بتاريخ إفريقيا.

وحين النظر إلى الوعاء المصدري، في سياق التصنيف المنوّه به، يمكننا القول- دون أن نخشى خطأً فادحاً في التقدير-: إنّ المواد المصدرية الأجنبية تتفوق من حيث القيمة الكمية والاعتبارية على المصادر المحلية، على الأقل في صيغتها المدوّنة، ولعلّ في هذه الحالة النادرة والمربكة ما يفسّر- إلى حدٍّ بعيد- ذلك الجموح الجارف للدارسين والمختصين في عملية البحث والتقصّي عن المصادر المتعلقة بمجال دراستنا (بلاد السودان)، سواء كانت محلية؛ أو تلك التي كُتبت في مناطق مختلفة من العالم، وتضمّنت إشارات تاريخية حول الأرض والإنسان السودانيَّيْن.

وجرت العادة في الدراسات الأكاديمية المتعلقة بتاريخ بلاد السودان بوضع ترتيبٍ لمختلف المواد المصدرية على النحو الآتي:

١) المصادر العربية.
٢) المصادر الأوروبية.
٣) المصادر السودانية المدوّنة.
٤) الرواية الشفوية.
٥) الأعمال الأركيولوجية.

هذا الترتيب يسترشد في أساسه بالمعيار الزمني ليس إلا؛ ذلك أنه منذ (ق٢م إلى نهاية ق٩م/ق٨-١٥م) احتكرت المصادر العربية جلّ معلوماتنا وأهمّها عن المنطقة، وقفزت المصادر الأوروبية للصدارة على امتداد (ق١٠م/ق١٦م)، وزادت قوة احتكارها لها مع توالي العقود والقرون، وأخذت

آخر من الاصطلاحات الحديثة، التي تؤدي- تقريباً- نفس المعنى والدلالة، وهي: السودان الغربي، وإفريقيا الغربية، والسودان النيجيري، والفضاء السنغامبي.

المصادر السودانية المدوّنة تفرض نفسها تدريجيّاً حتى اشتد عودها خلال (ق١١هـ/ق١٧م).

وأما شأن الرواية الشفوية السودانية، ونتائج الأعمال الأركيولوجية[١]، فلم يكسبا موقعيهما- كشواهد دالة- في خريطة المواد المصدرية إلا في نهاية القرن ١٩م والفترات التالية، علماً أنّ قصدنا من استعمال «الرواية الشفوية» يشير إلى اعتمادها بشكلٍ مقصودٍ وواعٍ في الدراسات الأكاديمية، وإلا فإنّ الكثير من معلوماتنا عن بلاد السودان، سواء بالنسبة للمصادر العربية أو الأوروبية قبل متم القرن ١٨م، إنما مصدرها رواية شفوية، تمّ إخضاعها لأحكام التقاليد الجارية في ثقافة التدوين.

في تقديم الرواية الشفوية الإفريقية:

لم يعد أحدٌ يجادل في أهمية «الرواية الشفوية» بوصفها مادةً أساسية ضمن لائحة مصادر تاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء، وغنيٌّ عن البيان كذلك أنّ الداعي لاعتماد كلّ أثر إنسانيّ (سواء كان شفاهيّاً أو مدوّناً أو رسماً أو نحتاً أو عمارةً أو أيّ مادة صامتة أخرى) شاهداً على قضية تاريخية ما؛ إنما يستوجب قبل اعتماده إجراء دراسة نقدية لتأمين سُبُل اعتباره؛ بغرض بيان مصداقيّته أو استبعاده.

وعلى الرغم مما راكمته التجربة العربية عموماً في حقل الدراسات الإفريقية؛ فإنّ الدرس العربي ما يزال غير قادرٍ على استغلال الرواية الشفوية[٢]، وليس في هذا الاعتراف ما يُحرجنا[٣]؛ بقدر ما يحفّزنا على تلمّس الإمكانيات المعرفية والمادية المتوفرة للمشتغلين في حقل الدراسات الإفريقية؛ بالمغرب أو في غيره من الأقطار العربية.

الواقع؛ أنّ الدرس العربي المتعلق بإفريقيا ما يزال عالةً على الدراسات الأعجمية فيما يخصّ استغلال الرواية الشفوية، مما يكبح نموّه الطبيعي. ونأمل أن يبدأ التفكير جديّاً في المسألة إن أردنا تجاوز الوساطة المعرفية في علاقاتنا بامتدادنا الجغرافي جنوباً، ولن يتأتّى لنا ذلك إلا بتعلّم اللهجات واللغات الإفريقية، «[فـ] المؤرخ الذي يدّعي كتابة تاريخ الجماعة بغير امتلاك لغتها؛ مقصّر حتماً في كتابته»[٤].

والمقصود بـ«الرواية الشفوية»: تلك الأخبار المتواترة عن أحداث تاريخية ماضية غير مدوّنة، يتناقلها الأحفاد عن الأجداد، وتتداولها فئةٌ خاصّة من المجتمع الإفريقي، يُطلق عليها بصفة عامّة اسم الرُّواة (Les Griots)؛ ونجد لدى كلّ شعبٍ من الشعوب الإفريقية قبيل أو فئة خاصّة تحتكر هذه المهنة، وغالباً ما تتحلق حول الأمير الحاكم.

وحسب عددٍ من المختصّين؛ فإنّ هذه الفئات، المتخصّصة في الرواية الشفوية منذ عهودٍ قديمة، لها نظامٌ خاصٌّ وقواعد مضبوطةٌ تحكم مهنتها، الشيء الذي يُضفي نوعاً من المصداقية على رواياتها، ويترتب على ذلك ضرورة التمييز بينها وبين الرواية الشفوية (العادية أو

(١) الأركيولوجيا (علم الآثار والفنون القديمة)؛ الذي يركز على المجتمعات والثقافات البشرية القديمة، وتدرس المصنوعات الحرفية مثل: الأدوات ، الأبنية ، الأوعية ...

(٢) في هذا الجانب؛ نلاحظ أنّ الكثير من الأفارقة، المختصّين في الرواية الشفوية، رتبوا لنا- بشأن اعتمادها- مقاييس صارمة ذات صبغة تعجيزية. والجدير بالانتباه: أنّ كلاً من: «جوزيف كي-زيربو»، و«بوبو هاما»، و«أحمدو همباتي با»، و«جبريل تمسير نيان»، يُعَدّون من أكبر المختصّين الأفارقة في الرواية الشفوية، وقد اختزلوا عصارة تجربتهم في الكثير من الفصول الواردة في العمل المشترك: (تاريخ إفريقيا العام)، جون أفريك-اليونيسكو، باريس ١٩٨٣م. انظر: المجلد الأول، المقدمة العامة، والفصلين الثاني والثامن. وفي الفصلَيْن السادس والسابع؛ حاول كلٌّ من «إيفان هربك» و«جان فانسينا» مقاربة وتقييم الرواية الشفوية بأسلوب وتصوّرات تختلف عن التوجّه الأول في الكثير من الجوانب، حتى إنه يمكن القول: إنّ الرواية الشفوية التي يتحدث عنها هذان الأخيران ليست هي نفسها المقصودة لدى الأوائل.

(٣) من أهمّ المآخذ التي يسجلها الباحثون الأفارقة على زملائهم بالعالم العربي: ابتعاد الباحث العربي وعدم اهتمامه الجدّي بالدراسات الميدانية، التي تفسح المجال لإمكانية استغلال الرواية الشفوية من أفواه شيوخ القرى النائية عن الحواضر المركزية الإفريقية المشهورة، وإذا كنت أجد في هذا العتاب الكثير من الحقّ والصواب؛ فإنّ واقع الحال لم يعد يسمح لنا بالاستمرار على هذه العادة المشينة. علاوةً على ذلك؛ يُلاحَظ أنّ نمط التعليم في العالم العربي يحيط المُدوّنَ بهالة تكاد تبلغ قدسية الدّين لديه، مما يحول مبدئيّاً دون تأهيل الباحث العربي نفسيّاً وفكريّاً في التعامل مع الرواية الشفوية بالاعتبار اللازم، ولعلّ في مَيْل جلّ الباحثين العرب إلى ترتيب الرواية الشفوية ضمن عوالم الثقافة غير العالمة ما يفسّر واقع الأمر عندنا.

(٤) إبراهيم بوطالب، ٢٠٠٣م: «الذاكرة والتاريخ»، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ع١، ص٢٣.

الشعبية) المتداولة بين أفراد المجتمع، والحبلى بالخرافات والأساطير الخيالية.

لقد أُفــرغ الكثير مــن الجهد في التعريــف بالرواية الشــفوية وقواعدها، وغير ذلك مما لــه علاقة بنظام أهل الاختصاص فيها (القوّالون أو العرّافون والكهّان) وما شابه.

وهــؤلاء الــرّواة أو القوّالون: يســمّيهم عبد الرحمن السعدي: «أصحاب الكلام»، بينما أطلق عليهم أحدُ الباحثين المتأخرين: «أرشيف الرواية الشفوية».

ويُطلق على الــرواة في اللغات المحليــة: (Gewel) بالولوفيــة، و(Gaol) بالفلانيــة، و(Dyali) بلغة الماندي أو الماندينــغ (Manding). ويظهــر أنّ ابــن بطوطة قد ســمع الاســم الأخير أثناء إقامته بمالي ثم استقصى عنه، فاســتعمل لفظاً قريباً مما يتداوله الماندينغ (مؤسّسو دولة مالي منتصف ق١٣م)، حيث سمّاهم: «الجُلا» (جمع جالي)؛ وأما المصادر البرتغالية فقد استعملت اسم (Gaul)، فيما أطلقت عليهم الكتابات الفرنسية اسم (Griots)[1].

المادة المصدرية المعتبرة، شفاهية أو مدوّنة أو صامتة، تُعَدُّ بمثابة إكسير السعادة لدى المؤرخ، من ثَمّ؛ فإنّ مختلف الشهادات المصدرية- كيفما كان نوعها وطبيعتها- هي مكمّلةٌ بعضها لبعض

وعلى الرغم ممــا بُذل من مجهــودات محمودة، على امتــداد العقود الأربعة الأخيرة، فإنّ الأطروحات التي يتقدّم بها المنافحون عن الرواية الشــفوية ما تزال محاطةً بظلالٍ كثيفةٍ من الغموض، ودون الخــوض في التفاصيل الدقيقة؛ يمكننا القول: إنّ هناك ثلاث خصائص أساسية تميّز الرواية الشفوية الإفريقية:

١- افتقار النظر التاريخي الســوداني للبعد الزمكاني، وقلّما اســتعانت الرواية الشــفوية بهذين الحدَّيْن (الزمان والمكان) في سرد الوقائع التاريخية وتأطيرها.

٢- انتماء المصــدر الأصل للروايــة (أي المُنتِج لها) للذاكرة الجَمعية للمجتمع، أو لفئة مخصوصة، وليس لمؤلف بعيْنه، ومن ثَمَّ يكاد يســتحيل العثور على المُنتِج للرواية أو زمن إنتاجها.

٣- باعتبــار أنّ الرواية ملكية جماعية؛ فــإنّ الرّاوية (القــوّال أو صاحب الكلام) لا يزعم لنفســه شــيئاً، وقلّما أَظْهَرَ نفسه ولو بوصفه حاكياً، بل نجده يتعمّد لعبة التخفي واتخاذ القناع في تبليغ المعنى للمستمع/القارئ؛ ولئن عادلنا في درجة الاســتهلاك ما بين السامع والقارئ؛ فلأنّ عملية تدوين الرواية الشفوية تجعلها قابلة للاستهلاك من جانبهما معاً[2].

(١) عبدالرحمن السعدي، ١٩٨١م: تاريخ السودان، باريس، ميزونوف؛ وهي النشرة الثانية عن الطبعة الأصل الصادرة عام ١٨٩٨-١٩٠٠م، ص٢٣١. أحمد الشكري، ١٩٩٩م: «رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان»، مجلة المناهل، عدد خاص بابن بطوطة (القسم الأول)، ص١٥٦. وفضلاً عمّا تقدّمت الإشارة إليه من دراسات حول الرواية الشفوية؛ تراجع ملاحظاتنا بشأنها في: أحمد الشكري، ٢٠١٥م: الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي ١٢٣٠-١٤٣٠م، طبعة ثانية مزيدة ومنقحة، الرباط: منشورات مركز الدراسات الصحراوية، ص (٤٣-٤٩)، وينظر:

Person (Y.), 1960, «Tradition orale et chronologie», Cahier d'Etudes Africaines, n° 2, Zerbo (J. KI), 1968, «Une source .476-p. 462 de l'histoire de l'Afrique: La tradition Orale», DIOGÈNE, n° 62, p. 129- 142. A. H. Bâ et J. -Daget, 1962, L'empire Peul du Macina 1818 Paris Mouton & CO La Haye. Zerbo (J. ,1853 KI),1978, Histoire de l'Afrique noire, Paris, Henige (D.), 1971, «Oral tradition .32-Hatier, p. 1 and chronology», Journal of African History, XII, Barry (B.), octobre 1997, «Ecrire .389-p. 371 l'histoire dans l'Afrique postindépendance: Le cas de l'Ecole de Dakar», Papier présenté au Séminaire organisé au Centre for African 22 .24-Studies, University of Cap Town, 22 pages. Gaybor (Th.), 2010, Sources orales histoire africaine: Approches méthodologiques, .53-Paris: Le Harmattan, p 49

(٢) لتقريب النظر من أمر الرواية الشفوية الإفريقية؛ يمكننا القول إنها تشبه- أو هي قريبة- في مضمونها وبنائها من بعض

وهناك عناصر أخــرى ثانوية تميّز الرواية الشــفوية الإفريقية، بيد أنّ ما يستدعي التوقف تلك التخندقات التي ميّزت تفاعل الباحثين المختصّيــن في معالجتهم لها، مما حمَلَ كلّ فئةٍ بحســب توجهاتها المنهجية على اتخاذ موقفٍ منها.

وتبعاً لذلك؛ برزت ثلاثة اتجاهات أساســية في أعمال المختصين:

الأول: إفريقــي خالص: يدفع في اتجاه اعتماد الرواية الشفوية بوصفها مادةً مصدرية أصيلة؛ لا تقلّ مصداقيةً عن المــواد المصدرية الأخرى، مما يوجب اعتمادها دون النظر إلى الفترة الزمنية التي تعنيها: العصر القديم أو الوسيط أو الحديث أو المعاصر[1].

والاتجاه الثاني: غربي الأصل: يتزعمه باحثون أوروبيون، مثل جان فانســينا (Jean Vansina)، أو أمريكيون، مثل دافيد روبنسن (Robinson David)، ناهيك عن مؤيدين قد نجدهم من إفريقيا نفسها؛ مثل بُبكر باري (Boubacar Barry). ويذهــب هذا الاتجــاه إلى الاعتــراف بأهمية الرواية الشــفوية في كتابة التاريخ الإفريقي، غير أنه يريد استخدامها في اســتنطاق التاريخ المحليّ المتعلق بالقرون الثلاثة الأخيرة- على أكبر تقدير- لا غير، أي أنهم يحبذون الاستناد عليها فيما يتعلق بفترة ما بعد منتصف القرن ١٨م.

وإذا كانــت الفئة الأخيــرة تجتهد فــي ترجمة رؤاها وتصوراتها من خلال ما تنتجه من أعمال ودراســات؛ فإننا نجدها في الغالب الأعمّ لا تفصح عن مرادها مخافة المسّ بمصداقية الرواية الشــفوية، وتجنباً لكلّ ما من شــأنه أن يعرّضها لسهام الفئة الأولى وانتقاداتها.

والحصيلة العَملية والعِلمية لأصحاب هذا التوجّه تؤدي بنا فــي نهاية المطاف إلى منتصف القــرن ١٨م على أكبر تقدير، فهل التوقف عند هذه «العتبة الزمنية» يعني الشــكّ في مصداقية «الرواية الشفوية» المتعلقة بالفترات السابقة؟ أو هــو اقتناع من هؤلاء بأنّ الذاكــرة الإفريقية عاجزة عن اســتنطاق التاريخ البعيد عن زمن الــرّاوي بأكثر من قرنَيْن من الزمن؟

قد يكون في هذه الأســئلة ما يُغــري تطلعاتنا لخلخلة بعض جوانب القضية؛ بغاية تعميق فهمنا لها لا غير، على أنّ اللافت للانتباه بهذا الصدد: أنّ «العتبة الزمنية» التي توقفوا عندهــا (منتصف القــرن ١٨م) كانت توافــق مرحلة تكاثر الشهادات المصدرية المدوّنة، وبخاصّةً منها الأوروبية، مما منحهــم رصيداً مُعتبراً من الكتابات الأوروبية حول إفريقيا، ومثل هــذا الأمر وفرّ لهذه الفئة شــهادات موازية للرواية الشــفوية، تصلح أولاً كحدٍّ للمقارنة، وتُؤخذ ثانياً كمقياسٍ لمقاربة ومعالجة مصداقية الرواية الشفوية[2].

أما الاتجاه الثالث: فإنه يعمل على ترسيخ منهج يهدف إلى تغييب الرواية الشــفوية؛ مع محاولة الاستئناس بها في

القصص المتداولة في التراث العربي الإسلامي، مثلما الحال مع قصة: «أبا يزيد البغدادي» و«سيف بن ذي يزن» اللذين انتسب إليهما الكثير من ملوك وقبائل كانم-برنو وحَوْسَ، ومثلما الحال أيضاً مع قصة «عنترة بن شداد»، أو «السيرة الهلالية»: تغريبة بني هلال التي تحكي سيرة هجرة قبيلة بني هلال وزحفها إلى بلاد المغرب. انظر: آدم عبد الله الألوري، ١٩٦٥م: موجز تاريخ نيجيريا، بيروت، مكتبة الحياة، ص (٧٢-٧٣).

Palmer (H.R.), 1967, Sudanese Memoirs, - London, Vol. 3, p. 95. Dierk (L.), Le Diwane des sultans du [Kanem-] Bornu: Chronologie et histoire d›un royaume africain (de la fin du Xe siècle jusqu'à 1808), Franz Steiner Verlag .111-GMBH. Wiesbaden, p. 95, 101 et 110

ويراجع الموقع التالي في الشبكة المعلوماتية: http:// qyemen.com/showthread.phpt

(١) نقصد الأسماء التي أشرنا إليها سابقاً: «جوزيف كي-زيربو»، «بوبو هاما»، «أ. همباتي با»، «ج. تمسير نيان».

Barry (B.), 2001, Sénégambie: plaidoyer pour - une histoire régionale, Sephis – Centro de .34-Estudos Afro-Asiaticos, p. 5

(٢) الخلاصة نفسها انتهينا إليها حين معالجتنا للرواية الشفوية مقارنةً مع المصادر العربية المتعلقة ببلاد السودان خلال العصر الوسيط. ولا يفوتنا بهذا الشأن أن نسجل انزعاج وتأسف «جان بوليك» كلما وقع على رواية شفوية لا تسندها مادة مصدرية مدوّنة، وفي الوقت نفسه نجده يعبّر عن سعادة لا تُضاهى- شأن ديرك لانجي وغيره- حينما يجد تطابقاً ماً بين الرواية الشفوية والمواد المصدرية المدوّنة، انظر: أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني، ص٤٧.

Boulègue (J.), 1987, Le Grand Jolof (XIII – - XVIe siècle), Paris, éd. Façades, diffusion Karthala. p. 11, 159 et163. Dierk (L.), Le Diwane .des sultans du [Kanem-] Bornu, p. 84

قضايا غيــر ذات أهمية بالغة، أو حينمــا تنعدم النصوص المدوّنة، ونصبح أمام فراغٍ وثائقيٍّ فظيع!

ونستشــف من هذا النهج موقفاً صارمــاً من الرواية الشــفوية الإفريقية، بيد أنه- مرةً أخــرى- لا أحد يصرّح علانيةً بموقفه؛ غير أنّ القارئ المتمرّس لن يجد صعوبةً في الوقوف على هذه الحساسية السّلبية المفرطة تجاه الرواية الشفوية؛ حساسية تتجنّب اعتمادها كلما أمكنهم ذلك؛ دون الخوض في تبرير موقفهم[1].

ويتهيأ لنا- فــي بعض الأحيان- أنّ اســتدعاءهم لها للاســتئناس؛ إنما هو محاولةٌ ملتويةٌ تتغيّا إقناع المنافحين عن الرواية الشــفوية بأنّ استبعادهم لها ليس عن جهلٍ بها وبقواعدها، وإنما عن معرفةٍ دقيقةٍ بكلّ مقتضياتها[2]، ومن أبرز المختصين المتشــبّعين بهذا النهــج: «جان هانويك» و«جوزيــف كيوك» «وديرك لانجي»، وأهمّ مــا يَجمع ويميّز هؤلاء الأعلام الثلاثة كونهم من المستعربين الغربيّين؛ ممن يتمتعون بدرايةٍ عميقةٍ باللغة والثقافة العربيتَيْن.

الرواية الشفوية ومقتضيات الفهم:

لا نقصــد بهــذه المقاربة المــسّ بالرواية الشــفوية وأهميتهــا في كتابــة تاريخ إفريقيا أو غيرهــا، لكننا- في المقابل- بحاجةٍ ماسّــةٍ لمنظومةٍ فكريةٍ وقواعد موضوعية مقبولــة، تنأى بنا عن المبالغة في تقييمها، وتجعلنا في غير حاجــةٍ لتبريراتٍ واهية. ويبدو أنّ هذا المطلب لم يُؤثّر بعدُ في نزعات أصحــاب الاتجاه الأول، الــذي غالباً ما يجنح لتوظيف عبارات بليغة ذات مسحة شعرية، ترمي إلى دغدغة الأحاسيس، دون تقديم أيّ مضمونٍ مفيدٍ في بعض الأحيان.

ونعتقــد أنّ «همباتي بَــا» قد بالغ فــي تقييم الرواية الشفوية، وذهب في ذلك مذهباً قصيّاً، خاصّة حينما اعتبر وقدّر أنّ المشكلات التي تعانيها الرواية الشفوية هي نفسها التي عانت منها عملية توثيق الحديث النبويّ وتأصيله! وعلى النحو نفســه؛ نجد «كي- زيربو» يتزعم لائحة الأعلام الذين وظّفوا جميع الوســائل، بما فيها البلاغة الأدبية، للتأثير في القارئ وإقناعه بأهمية الرواية الشفوية.

وما يأســرنا فــي هذه المســألة أنها تجــد صدًى واســعاً لدى العديد من الباحثين، مما يوسّــع دائرة التأثير والتخديــر البياني أو الســحر البلاغي، وقــد جرت العادة في هذا الباب باســتغلال المقولة المشــهورة لكي- زيربو، ومنطوقها: «إنّ تاريخ إفريقيا جنــوب الصحراء يتميّز بقلّةٍ نسبيةٍ من حيث المصادر المدوّنة، ويمكن أن يتحوّل النقص إلى عنصرٍ إيجابي، وذلك بالتخلّص من الأثر السلبي للنصّ المكتوب»[3]! والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: متى كان هذا النقص- الذي نراه فادحــاً- عنصراً إيجابيّاً، بل كيف يُعقل مثــل هذا الكلام في ظلّ المعاناة التي يكابدها الدارســون يوميّاً بغاية البحث عن مصادر جديدة لتاريخ بلاد السودان، والعمل علــى تحقيقها ونشــرها؟! وما دمنــا تحت مظلة الســحر البياني؛ فإنّ المســتمتعين به سيسعدون لا محالة بما استجد من المصطلحات الدالة على الرواية الشفوية أو

(١) يبدو أنّ «كي- زيربو» قد استشعر بدوره حقيقة هذه التخندقات والتمايزات الفئوية غير المعلنة لعدد غير قليل من المختصين في تعاطيهم مع الرواية الشفوية، فوجّه للذين صنفناهم ضمن الفئة الثانية والثالثة عتاباً ولوماً مبطناً، جاء في صيغة انتقاد علمي: «إنّ الخبر الشفاهي ليس مجرد مصدرٍ يُلجأ إليه في آخر المرحلة حين يضرّنا اليأس من غيره، بل هو مصدرٌ له حظٌّ كامل ومنهاجية تمّ الآن إرساؤها، ثم هو يوفّر لتاريخ القارة الإفريقية أصالة قوية»، انظر: مقدمة المجلد الأول من (تاريخ إفريقيا العام) الذي أصدرته اليونيسكو، م. س، ص٢٩، ويستحسن مراجعة هذه المقولة في صيغتها الفرنسية.

(٢) ربما يكون في ذلك الاستئناس محاولةٌ منهم لردّ كلّ اتهام بالتقصير في أمر الرواية الشفوية، مما قد يثير حفيظةً الباحثين الأفارقة وغيرهم من المنافحين عنها، بيد أنّ منهج التقية هذا، المعتمد من جانب عناصر الفئة الثالثة، لم يشفع لها أمام المؤمنين بالرواية الشفوية، فتعرضوا لنوعٍ من الجفاء والتجاهل المقصود، حتى وإن قدّموا أعمالاً رائدة. ونكاد نزعم أنّ «جوزيف كيوك» لو لم يقدّم ضمن دراساته المتعددة أطروحته المتعلقة بمدوّنة المصادر العربية، سواء في طبعتها الأولى أو الثانية (١٩٧٥، ١٩٨٥ Recueil:)، ما كان لأحدٍ منهم أن يلتفت إليه ويعتمد عليه؛ ويظهر هذا النزوع بشكلٍ جليٍّ في المقدمة الجافة والمقتضبة التي كتبها ريموند مونيي، وصدّر بها كيوك مدوّنته، انظر:
Cuoq (J.), 1985, Recueil des sources arabes - concernant l'Afrique occidentale du 8è au 16e siècle (Biladal-Sudan), Paris, CNRS, 2e éd. p. XI-XIII.

(٣) ج. كي- زيربو: مقدمة المجلد الأول من (تاريخ إفريقيا العام)، ص (١٩-٤٠)، خاصة: ص٢٥. أ. همباتي با: المأثور الحي، م. س، ص (١٧٧-٢١٢).

المأثور الشفاهي الإفريقي في الدراسات الأدبية والفلسفية: ORATURE ou ORALITURE.

وفي هذا الباب؛ تستوقفنا بعض الخلفيات التي حفّزت جيل الرواد- من الباحثين الأفارقة- على اعتماد الرواية الشفوية، وتأكيد أهميتها في خريطة مصادر تاريخ إفريقيا، فقد كانت من الخلفيات الأساسية مسألة كتابة التاريخ المحليّ المهووسة بالردّ على الخطاب الاستعماري، أو البحث عن الزعيم التاريخي المحلّي، أو العمل على تأصيل جذور الدولة الوطنية... إلخ.

بموازاة مع ما تقدم؛ نسجّل أنّ ميل الفئة الأولى، الرامي إلى تصيّد وفضح الثغرات الحافة بالنصّ المدوّن، لا يمكنه أن يزيد في قيمة الرواية الشفوية، أو أن يرتقي بها إلى مستويات تحصّنها من عملية النقد التاريخي المعتمد، إذ إنّ اتباع مثل هذا النهج التبريري لن يفيد الباحث بشيءٍ جدّي، ولذلك لن نجد واحداً من المختصّين في النصوص المدوّنة يستحضر الثغرات التي تحفّ بالذاكرة البيضانية (= الشنقيطية) أو السودانية، ليستشهد بها على مدى ضعف وهشاشة الرواية الشفوية مقابل قوة وأصالة النصوص المدوّنة، علماً أنّ سيطرة الثقافة الشفاهية ورسوخ تقاليدها، بين البيضان والسودان، كانت لها آثارٌ سلبيةٌ فادحةٌ على الذاكرة المحلية، ومن ذلك ما احتفظت به الذاكرة البيضانية من أنّ أصل الأمير أبي بكر بن عمر الصنهاجي (ت٤٨٠هـ/١٠٨٧م) من المغرب الأقصى، وأنه جاء منه إلى الصحراء[1]، على أنّ تسجيل هذه الملاحظة لا يفيدنا بأنّ النصّ المدوّن منزّهٌ عن الخطأ أو التزوير والتحوير؛ وللتدليل على ذلك؛ عادةً ما أستعين بالنموذج الآتي: تعدّ النقود الورقية من الوثائق المدوّنة المحصّنة، وبالرغم من ذلك فإنها تتعرض للتزوير.

وغنيٌّ عن البيان أنّ المادة المصدرية المعتبرة، شفاهية أو مدوّنة أو صامتة، تعَدُّ بمثابة إكسير السعادة لدى المؤرخ، من ثمّ؛ فإنّ مختلف الشهادات المصدرية- كيفما كان نوعها وطبيعتها- هي مكمّلةٌ بعضها لبعض، وليس لنا سوى أن نسعد بأيّ شهادة تضيف لمعارفنا ولو النزر القليل، خصوصاً أننا نعاني من نقصٍ فادحٍ في العناصر الإخبارية المتعلقة بتاريخ بلاد السودان قبل متم القرن ١٨م.

إنّ مبالغة أنصار الرواية الشفوية في تقييمهم لها، وتجاهلهم للمسألة الأساس في القضية (المصداقية)، ثمّ عملهم على الانتقاص من قيمة النصّ المدوّن بغاية إبراز أهمية الرواية الشفوية، كلّ هذه العوامل كان لها تأثيرٌ سلبيٌّ في التعاطي مع الرواية الشفوية، مما ساعد على خلق توجّهٍ- ربما غير مقصود- يتمثل في التبّرم من المنهج التوثيقي أو من أيّ دراسة تنهل منه.

ملاحظات وتوضيحات حول طبيعة علاقة المتن الشفاهي بالمتن المدوّن:

ما من شكٍّ بأنّ التجربة الميدانية تُفوز الكثير من المختصّين، بيد أنّ الأطروحات المتعلقة بالرواية الشفوية المقترحة على الدارسين تعجّ بالكثير من المشكلات، ونعتقد أنها جاءت نتيجةً للنهج الذي اتبعوه أثناء المرافعة عن تصوراتهم، مما عمّق مشكلاتنا في فَهْم أبعادها ومقتضياتها أكثر مما ساعدنا على تفهّمها. والواقع: أنه ليس هنالك أيّ صراعٍ أو عداوةٍ ما بين المتن الشفاهي والمتن المدوّن، كما أنه ليس لنا أو لغيرنا اعتراض على أيّ نوع من المصادر، وفي هذا السياق؛ نلفت الانتباه إلى أنّ أحد الأسباب العميقة في التنافر الحاصل ما بين المدرسة الأنتروبولوجية والمدرسة التاريخية، في حقل الدراسات الإفريقية، إنما ينهل من هذا المُشكل الواهي والمفتعل.

بَدْءاً؛ نودّ التأكيد مرةً أخرى على أنّ عملية النقد التاريخي، بوصفها آليةً معتمدةً في البحث التاريخي، لا تستثني أيّ نوع من المصادر كيفما كانت طبيعته وشكله، بل إنّ صنعة التاريخ في عمقها وجوهرها ليست سوى عملية «نقدية بالدرجة الأولى»[2]، على أنّ مثل هذه العلاقة، أو

(١) معلوم أنّ أصله من صحراء صنهاجة، وبخاصة مجال لمتونة. انظر: عبد الله بن الحاج إبراهيم، (رسالة الروض في أنساب أهل الحوض)، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، رقم ٢٧٥٥، نواكشوط، ص. ١٢-١٦. والظاهرة نفسها تنسحب على إفريقيا الغربية، انظر: Gaybor (Th.), 2010, Sources orales histoire africaine: Approches méthodologiques, p 36-40.

(٢) إبراهيم بوطالب: «الذاكرة والتاريخ»، م. س، ص١٨. ويبدو أنّ المؤلف اعتصر جملة تجاربه الطويلة مع التاريخ في هذا المقال المتميز.

المطابقــة ما بين المتن الشــفاهيّ والمتن المدوّن، باعتبار أنّ الأول أصــلٌ للثانــي، لا يمكنها أن تحجــب عنا جوانب الاختلاف بينهما[1].

في هذا الجانب؛ يمكننا اســتحضار الكثير من الأمثلة الشــاهدة على أوجه التبّاين والاختــلاف فيما بينهما، مما يمكنّنا ويســاعدنا على فَهْم جوهر القضيــة، ذلك أنه من المشهور المعلوم أنّ الكثير من المعلومات التاريخية الواردة في المصادر العربية والأوروبية، قبل نهاية القرن ١٨م، كانت في أصلها شــفاهية[2]؛ بيد أنّ طريقة طرحها وتداولها في المتــون العربية والأوروبية كانت تخضع لمقتضيات التقاليد الجارية في صنعة التأليف.

ولنا في نصوص العمري وابن خلدون- وغيرهما- حجّةٌ واضحةٌ بهذا الشأن، إذ إنّ كليهما استقى الكثير من معلوماته عن بلاد السودان- على عهد مالي- من أفواه رجال، بعضهم من السودان (أي رواية شفوية)؛ غير أنه لا أحد من الباحثين تجرّأ على ترتيب نصوصهما بموازاةٍ مع النصوص السودانية أو الرواية الشــفوية السودانية، إن على المستوى اللغوي، أو على مســتوى بناء النصّ، أو على مستوى المنهج التاريخي المعتمد لديهما.

وههنا نستدعي حالة ابن خلدون؛ لنتساءل: حينما حاول صاحب (العِبَر) الاستقصاء عن أحوال بلاد السودان من خلال فقيه أهل غانة الشيخ عثمان، الذي لقيه بالقاهرة نهاية القرن ١٤م، هل ســجّل لنا رواية مختلقة أو مستبعدة أو لا تساير ما نعرفه عن تاريخ المنطقة؟! إنّ أصل الرواية- كما هو معلوم- شــفاهي، لكــن عبدالرحمن بن خلــدون أخضعها للأعراف الجارية فــي التدوين ولتقاليد التأليــف التاريخي (الإعلان عن مصدر الخبر وتسمية صاحبه، تحديد المجال الجغرافي للرواية، تأطير الوقائع زمانيّاً... إلخ)، مما ســمح لنا بدورنا بإمكانية تأكيد مصداقية الخبر أو الشكّ فيه واستبعاده.

لا نقصد بهذه المقاربة المسّ بالرواية الشفوية وأهميتها في كتابة تاريخ إفريقيا أو غيرها، لكننا- في المقابل- بحاجةٍ ماسّةٍ لمنظومةٍ فكريةٍ وقواعد موضوعية مقبولة، تنأى بنا عن المبالغة في تقييمها

ويمكننا أن نعتمد المقاييس نفســها في مقاربة روايات العمري عن بلاد السودان على عهد مالي خلال القرن ١٤م، باعتبار أنّ مصدر جلّ شــهاداته روايةٌ شفاهية، أخذها عن مغاربةٍ زاروا أو أقاموا مدةً طويلة ببلاد السودان، مثل الشيخ أبي عثمان سعيد الدكالي، أو أخذها عن سودانيين ومصريين تحلّقوا حول السلطان منسى موسى في أثناء إقامته بالقاهرة أو رافقوه أثناء حجّته المشهورة عام ١٣٢٤م[3].

فــي المقابل؛ فإنــه حينما ننتقل إلــى محاولة تركيب صياغــة تاريخية انطلاقــاً من الروايات التي اســتعرضها القوّالــون خلال القرن ١٩م أو الــذي يليه؛ فإننا نحتاج إلى شــبكة عنكبوتية من الأسئلة (تهمّ الجانب اللغوي، وصاحب الرواية، والسياق التاريخي... إلخ)، في سبيل تمحيص هذه الروايات الشــفاهية، وفي خاتمة المطاف؛ فإننا- في مرات عديدة- لن نحصل على ما يفيد في قراءتها فقط، فالأحرى تشريحها أو تأويلها[4].

أبعــدُ من هــذا؛ أنّ الكثيــر من المناصريــن للرواية الشفوية، والمولعين بتصيّد أخطاء المتون المدوّنة وثغراتها، ذاهلون عن أنّ نصوص ابن بطوطة عن مملكة مالي وغيرها

(١) تابع تحليل إبراهيم بوطالب (في نفس المرجع والصفحة)؛ لدرجة الاختلاف بينهما بالنسبة للعالم العربي الإسلامي، ومما اختزله لنا لخدمة هذا الغرض، قوله: «وأحسن ما يُثبت الفرق بين الذاكرة والتاريخ؛ تعارض مفهومي الرواية والدراية».

(٢) Boulègue (J.), 1987, Le Grand Jolof (XIII –XVIe siècle), p 24.

(٣) العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله، ١٩٨٨م: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (الأبواب ٨-١٤)، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الباب العاشر، ص٦٩.

(٤) نستثني النصوص العربية السودانية والشنقيطية المدوّنة قبل القرن ١٨م.

إنما هي في جملتها رواية شفوية، دوّنها ابن جُزَيّ بعد بضع سنوات من عودة رحّالتنا إلى المغرب مطلع عام ١٣٥٥م؛ فلماذا لم يعملوا على ترتيبها ضمن مواد الرواية الشفوية؟ أو على الأقل: لماذا لا يجنحون لوضعها بموازاتها؟

ونزعم أنّ جبريل تمسير نيان (D. T. Niane)، في كتاباته المتعددة عن مالي انطلاقاً من الرواية الشفوية (ولا شيء آخر غيرها!)، كان يحفظ عن ظهر قلب جلّ روايات ابن بطوطة عن بلاد السودان، وعلى الرغم من ذلك لم يدر بخلده أن يوظفها أو يستعين بها. وغنيٌّ عن البيان أنّ ج. نيان (شأن: همباتي بَا، وكي- زيربو)، يُعَدُّ من الرّواد في مجال الرواية الشفوية بإفريقيا، وقد كانت له تجربةٌ تاريخية خصبة وثرّة في التعبير عن عهد دولة مالي وزعيمها «ماري جاطة»، المشهور أيضاً باسم «سندياتا». وحريٌّ بنا هنا أنّ نستحضر الوقفة الذكية لأحمد التوفيق؛ حيث بدَا وكأنه يعالج جانباً من جوانب الإشكال المطروح علينا في هذه الدراسة: ما طبيعة علاقة المتن الشفاهي بالمتن المدوّن[١]؟

وإذا انتقلنا للنظر في أمر الأصول المصدرية للمصنفات الأوروبية حول إفريقيا قبل القرن ١٩م؛ يمكننا أن نقف على الملاحظة نفسها، ذلك أنه- كما أوضحنا سلفاً- قد كان مصدر الكثير من المعلومات التي تضمّنتها التقارير والمذكرات الأوروبية رواية شفوية؛ غير أنّ تداول تلك المعلومات في كتاباتهم جاء في سياق المقتضيات الجارية في صنعة التأليف والتدوين لدى الأوروبيين[٢].

مرةً أخرى؛ نود تأكيد أنه من الصعب علينا- تبعاً لتقاليد النقد التاريخي في ثقافة التدوين- أن نقيس بنفس الميزان القيمة الأدبية والتاريخية للنصوص الأوروبية مقارنةً بالنصوص السودانية، فأحرى الرواية الشفوية، ويكفينا بهذا الشأن أن نقارن ما بين رواية الشيخ محمد اليدالي ورواية لويس مورو دي شامبونو (L. M. De Chambonneau) عن حرب شربيه وزعيمها ناصر الدين، لتأكيد ما نذهب إليه من الاختلاف الواضح بين النموذجَيْن[٣]؛ فرواية الأول- بحكم تأثّرها ببنيات ومعالم الثقافة الشفاهية- جاءت ملبّيةً لرغبات السامع أكثر مما توجهت للقارئ. من ثمّ؛ لم تسعفنا كثيراً على الرغم من انتماء اليدالي (١٦٨٤-١٧٥٣م) للمجال المعنيّ بالكلام، وقُربه الزمني من الواقعة التاريخية (حرب شربيه: ١٦٧١-١٦٧٧م).

على العكس من ذلك؛ فإنه- بالنظر للتقاليد الجارية في التأليف لدى الأوروبيين- قد جاءت رواية دي شامبونو (حوالي عام ١٦٧٤م) عن الحدث نفسه بما يشفي الغليل منها في حدود المتاح الممكن، مما أسعفنا كثيراً في «تحديد تواريخ أهمّ معارك تلك الحرب [شربيه]، ومقتل أئمتها، وضبط الفترة الزمنية التي استغرقتها بصفة دقيقة، وحلّت بالتالي مشكلاً ظلّ مستعصياً لأمد طويل».

وما من شك؛ أنّ خصوبة نصّ دي شامبونو مقارنةً بنصّ اليدالي، خصوصاً على مستوى التأطير الزمكاني، هي التي حفّزت «ولد السعد» للتراجع عن رأيه السابق بخصوص تقييم النصوص المصدرية الأوروبية، ودفعته للوقوف على خصوصياتها المميزة مقارنةً بالنصوص الشنقيطية المحلية، وعلى وَقْع خطواته وآثارها سار بلديه محمدو بن محمذن[٤].

في السياق نفسه؛ يشدّد محمود عبد الغني على: أنّ عملية «التذكر تؤسّس فقط شرط إعادة بناء الحياة [للمتن] كسرد»[٥]، من ثمّ؛ فمهما بلغت قدرة العرّاف أو

(١) أحمد التوفيق، ٢٠٠٠م: «ابن جزي كاتب رحلة ابن بطوطة»، مجلة المناهل: ٦٠، عدد خاص بابن بطوطة (القسم الثاني)، ص (١٧٩-١٨٩).

(٢) -Delaunay (K.), Voyages à la Côte de l'Or (1500 (1750). Étude historiographique des relations de voyage sur le littoral ivoirien et ghanéen, Ed. AFERA, Karthala 1994. p. 25 et 70-80.

(٣) انظر وقارن: الشيخ محمد اليدالي، ١٩٩٠م، نصوص من التاريخ الموريتاني: شيم الزوايا، أمر الولي ناصر الدين، تونس، بيت الحكمة، تحقيق: محمذن ولد باباه، ص (١١٥- ١٩٦).

(٤) في دراسة تتعلق بحرب شُرْبُبه تعود لعام ١٩٨٢م؛ كان محمد ولد السعد قد آخذ نص دي شامبونو بلهجة حادة، غير أنه عاد بعد عقدَيْن من الزمن (في أطروحته الأخيرة حول الترارزة) ليقرّ ويعترف بأهمية النصوص الأوروبية مقارنة مع النصوص المحلية الشنقيطية، انظر وقارن: ولد السعد، ١٩٩٤م: حرب شُرْبُبه أو أزمة القرن ١٧ في الجنوب الغربي الموريتاني، نواكشوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص٢٥، و ص١١٣. محمدو بن محمذن، ٢٠٠٠م: المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ص٢٤.

(٥) يراجع: تقديم محمود عبد الغني: نصية السيرة الذاتية..

الرّاوي (المُخبر، القوّال، صاحب الكلام) على استحضار الماضـــي، وبخاصّة الماضي البعيـــد، فإنه لن يقدّم لنا ســـوى قصة أو روايةٍ أدبية، تعتمد على التّخييل والبناء اللغوي الشـــائق، وليس عملاً تاريخيّـــاً. وهي الخلاصة نفســـها- تقريباً- التي كنا قد انتهينا إليها حين اشتغالنا على تاريخ مملكة مالي، حيث قلنـــا: «عندما يتمّ اعتبار الرواية الشـــفوية مصدراً موثوقاً، يملك مصداقيته من ذاتـــه، ثم نعمل للارتقاء بها إلى درجةٍ يمكن معها نســـخ مضمون المصادر العربية، فإنّ ذلك ينتهي بنا إلى صياغة عمل ينتمي للأدب الروائـــي أو علم الأنتروبولوجيا، في حين نبقى بعيدين عن الدراســـة التاريخية التي تتوخى توثيق الخبر قبل كلّ شيء»[1].

ويُغذي هذا التقييم ما جاء عند محمد القاضي، بقوله: «إذا كان الإعلام أكبر غايات التاريخ؛ فإنّ التأثير أكبر غايات الأدب»، على أن لا يُفهمنّ من هذا القول أنّ الرواية التاريخية المدوّنة لا توظّف التّخييل والبلاغة الأدبية، فهي إلى جانب ما يمكن أن تقدّمه مـــن معلومات ومعطيات بنَفَس تاريخي؛ فقد تستعين ببعض مقوّمات العمل الأدبي، كما قد تظهر بين الفينة والأخرى أريحية أدبية لدى المؤرخ[2].

مـــؤدّى القول: ما لـــم تتقعّد وتتأصـــل التقاليد الجارية في التأليف لدى المجتمعات الشفاهية، فإنه يصعب على النخبة العالمـــة- خلال المراحل الأولى من تشـــكّل الثقافـــة العالمة- فكّ إســـار مقتضيات الثقافة الشفاهية، وهذا ما تشهد عليه جلّ النصوص «الســـودانية» إلى مطلع القرن العشـــرين، كما تشهد عليه كذلك جـــلّ النصوص «الشـــنقيطية» قبل نهاية القرن ١٨م، ذلك أنه على الرغم من مجهودات المُنتج للتّقيّد بالتقاليد الجاريـــة في الكتابة والتأليف؛ فإنه يجد نفســـه- عن وعيٍ منه أو عن غير وعي- عاجزاً عن إيفائها حقها.

ومجموع ما تقـــدّم من ملاحظـــات وتوضيحات: يبيّن لنا الفروق الأساســـية ما بين الرواية أو التقاليد السودانية الشـــفوية؛ وبين الرواية المدوّنة ذات البعـــد التاريخي في ثقافة التدويـــن والتأليف، ويقف بنا عنـــد أوجه الاختلاف بينهما؛ علمـــاً أننا نوظّف مفهوم التاريخ كما هو متداول في الثقافة العربية الإسلامية والثقافة المسيحية الأوروبية، ولا يفيد هذا التوضيح أيّ انتقاص من القيمة الأدبية والتاريخية للمأثور الشفاهي السوداني؛ وإنّ جهلنا بالكثير من مقوّماته، بالنظر لضعف مـــا تحت أيدينا، هو مـــا يقتضي مثل هذه التوضيحات الجانبية.

أخيراً وليس آخـــراً: فإنّ المختصّين في التحقيب التاريخي وتطوّر الفكر البشـــري عموماً، حينما عيّنوا مرحلة اكتشـــاف الكتابـــة خلال الألـــف الرابعة قبل الميلاد، واتفقوا على اعتبار ذلك مؤشّـــراً فاصلاً بين مرحلتَيْن حاســـمتَيْن في ســـلّم تاريخ البشرية ورقيّها الفكري، لم يكن ليغيب عنهم أنّ الشفوي أصلٌ لكلّ مادة مدوّنـــة، وأنّ المُدوّن يمثّل امتـــداداً أو مرحلةً متطورة مقارنةً بالمرحلة السابقة. ترتيباً على ذلك؛ فإنّ الحدّ بينهمـــا ليس أمراً عبثيّاً، وإنما هنـــاك عناصر بنيوية وهيكلية، تشـــهد على الفوارق الفاصلـــة ما بين مادة «الرواية الشـــفوية» ومادة «الرواية المدوّنة»، وإلا لما اتخذوهـــا علامةً للتمييز ما بين مرحلة ما قبل التاريخ والمرحلة التاريخية.

في منطق التقاليد الشفاهية: الكلمة هبة من الله:

إنّ الســـؤال الذي يؤرّق الدارس المهتم بتاريخ إفريقيا، والباحث المتطلع للاســـتعانة بالرواية الشـــفوية، لا يرتبط بطبيعـــة ونوعية المصدر المؤهّل لخدمـــة قضيته (هل هو مدوّن أو شـــفاهي أو لوحة مرســـومة أو شاهد قبر، أو غير ذلـــك)، بل يتعلّق بالبحث في مدى مصداقية رواية المصدر، وبعبارة أكثر دقة: كيف يمكن للنقد التاريخي أن يُظهر مدى مصداقية الرواية الشفوية؟

ابن خلدون نموذجاً، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، جامعة محمد الخامس- أكدال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية ٢٠٠٣-٢٠٠٤م (مرقونة).

(١) أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني، ص (٤٣-٤٩)، خاصة: ص٤٧.

(٢) في هذا الباب؛ نستحضر كذلك قولة إبراهيم بوطالب التي مرّت بنا قبل قليل: «وما التاريخ إلا عملية نقدية بالدرجة الأولى».

ويبدو أنّ الكثير من أعلام الاتجاه المنافح عن الرواية الشفوية تجنّبوا الخوض في هذه الإشكالية الحقيقية بشكلٍ عميقٍ ومفصّل، وقلّما اجتهدوا في مساعدتنا على إبراز مدى مصداقية الرواية أو التقاليد الشفوية، اعتقاداً منهم بأنّ النصّ المدوّن لا يمكن أن يكون مندرجاً ضمن أشكال التعبير الشفاهي، أو بالأحرى أنه غير مؤهل لاستلهام مقوّمات الثقافة الشفاهية. في المقابل؛ نجدهم قد أفرطوا في الوقوف على العيوب والثغرات المحتملة في النصوص المدوّنة، إلى درجةٍ كاد معها أن يصبح الهاجس الأساس الذي يشغلهم في القضية يستلهم المقاربة التالية: كلما عَمِلنا على الانتقاص من مصداقية النصّ المدوّن؛ ازداد حظنا في إقناع جمهور الباحثين بأهمية الرواية الشفوية!

ونرى أنّ الخلفية المتحكّمة في ابتعاد المختصين في الرواية الشفوية عن مزاولة عملية النقد تجاه المأثور الشفاهي؛ إنما تكمن فيما تعتبره الثقافة الشفاهية الإفريقية وتتصوره من أنّ «الكلمة هبةٌ من الله» وأنّ «الكذب جذامٌ أخلاقي».

تبعاً لذلك؛ فإنّ التصريح بأيّ رغبةٍ في تمحيص ونقد القول الشفاهي، على منوال ما هو متداول في صناعة التاريخ، ينأى بنا زاويةً مقدارها ١٨٠ درجة بعيداً عن مضمون المأثور الشفاهي؛ بل إنّ أيّ مبادرة من هذا النّوع تلغي أصلاً (علميّاً وأخلاقيّاً) حاجة الاعتماد على الكلمة في المأثور الشفاهي الإفريقي.

بموازاةٍ مع ما تقدم؛ نلاحظ أنّ المجهودات المتواصلة بغاية التعريف بأهل الاختصاص في مجال الرواية الشفوية من أصحاب الكلام؛ باتت غايةً في التعقيد، مما يربك القارئ بشكلٍ جدّي، ويجعلنا عاجزين عن التمييز بين الشروط الخاصّة بهذه الفئة. وقد ارتقى هذا المشكل إلى درجةٍ أصبح معها من الصعب اختيار الأسماء الدالة على هذه الفئة من الرّواة-القوّالين أو أصحاب الكلام؛ بحسب تعبير عبد الرحمن السعدي: هل هم المنشطون العموميون، أو الحدّادون، أو القوّالون، أو المغنّون والموسيقيون، أو النّساجون، أو القصّاصون، أو الكهنة، ومنهم الفئة المتحلقة حول الزعيم (الملك أو الحاكم)، والمُؤتمنة على أسرار الأسرة الحاكمة؟

وتكاد هذه المسألة تشكّل إحدى نقاط الاختلاف العميقة والجوهرية لدى جموع أنصار الرواية الشفوية الإفريقية، ونرى أنها تمثّل الحدّ الحاسم والفاصل بين مَنْ صنفناهم ضمن الفئة الأولى وبين المنتمين للفئة الثانية. في هذا الإطار؛ فإنّ ترتيب ولد السعد وابن محمذن لإنتاج فئة المغنّين والموسيقيّين داخل المجتمع الشنقيطي (البيضاني) ضمن عوالم الثقافة الشعبية، واستبعادهما لهذه الفئة من حقل الثقافة العالمة له أكثر من دلالة فيما نحن بصدده. وإذ نسجل هذه الملاحظة؛ فنحن غير غافلينٍ عن تمايز بنية النشاط الثقافي الشفاهي لدى كلٍّ من الشناقطة والسودان، وفي الوقت نفسه؛ فإنّ في هذه الإشارة تلميحاً لمن يريد أن يكتب تاريخ مدينة مراكش قبل القرن ١٨ للميلاد انطلاقاً من حكايات رجال ساحة جامع الفنا، وإن كنتُ أتوقع من مثل هذه التجربة متعةً فنية وأدبية يعزّ نظيرهما[١].

فضلاً عمّا تقدّم؛ فإنّ المعنيّين بالدفاع عن الرواية الشفوية أغفلوا توضيح عددٍ من الحيثيات المرتبطة بالوضع الاعتباري للقوّال/الراوي، ذلك أنه إذا كانت الفئات المختصّة في الرواية الشفوية- إلى نهاية العصر الوسيط- تتنزّل مكانةً مرموقة لدى المجتمع السوداني قمّةً وقاعدة، فكيف لنا أن نفسّر التطورات التي عرفتها نظرة المجتمع السودانيّ والنخبة الأهلية إزاء فئة القوّالين والحدّادين من أصحاب الكلام، إذ انتقلت تلك النظرة في خلال القرون الثلاثة الأخيرة؛ من الاعتبار والتقدير إلى الاستصغار بل والاحتقار؟

(١) محمدو بن محمذن: المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر، م. س، ص (٣٠٥-٣٠٨).

ولعلّ في هذا التحول ما حمل «جان فانسينا» على التوقف مليّاً عند الصعوبات الجمّة التي يعانيها الباحث أثناء التمييز (برسم الاعتماد) ما بين الفئات المختلفة للقوّالين، وفي هذا السياق؛ تساءل حول الفئة التي يمكن اعتبار أقوالها وحكاياتها دون غيرها؟ وقد يبدو السؤال بريئاً، لكنه في جوهره وعمقه يستبطن نقداً مؤلماً وقاسياً تجاه الفئة الأولى[1].

وليس لنا في هذا الجانب إلا أن نتساءل بدورنا عن أسباب هذا الانقلاب في نظرة المجتمع السوداني إزاء القوّالين: هل للمسألة علاقة بظهور الأوروبيين على السواحل الأطلنتية وبداية مقايضتهم المكثفة لقطع أو قضبان الحديد بالسلع السودانية، مما أفقد صناعة الحديد المحلية قدسيتها أو هالتها المعهودة لدى السودان إلى غاية نهاية العصر الوسيط؟

إنّ لائحة الأسئلة تتناسل كلما حاولنا مقاربة القضايا المرتبطة بالرواية الشفوية في علاقتها بالنص المدوّن. وفضلاً عن حاجتنا للتكوين والتأهيل الضروريّين في هذا المجال؛ نأمل أن تتوجه العناية لتفسير مثل هذه الظواهر؛ حتى يمكن للدرس العربي أو غيره أن يستفيد ويستعين بالرواية الشفوية في كتابة تاريخ إفريقيا دونما حرج أو مواربة، ولربما في هذا الحرج غير المعلن ما حمل فئة عريضة من الجيل الجديد من الباحثين العرب والأعاجم على تجنّب استثمار الرواية الشفوية والنفور منها، مما جعلهم ينأون بأنفسهم عن الخوض في جدالٍ عقيم حولها، بيد أنّ هذا الموقف العلمي الصامت والمعبّر في الوقت نفسه لا ينبغي أن يخرجنا عن دائرة الحوار والنقد العلمي البنّاء[2]، ويجمل بنا استحضار مقولة الحكيم العلامة «همباتي با» التي تختزل أهمّ الشروط، أو بالأحرى المؤهلات الواجب توفّرها لدى الباحث المقبل على اعتماد الرواية الشفوية، إذ يجب عليه: «أن يمتلك قلب يمامة، وجلد تمساح، ومعدة نعامة»[3].

وختاماً نقول:

إنّ أملنا كبيرٌ في أن ينتقل أهل الاختصاص في الرواية الشفوية الإفريقية من موقع تأصيل الذات من خلال التراث المحلي، إلى موقع النظر الأكاديمي برسم تأصيل الرواية الشفوية، وفي انتظار هذه النقلة؛ نعود للتأكيد على أنّ العوائق والصعوبات مما يحفّ سبيل استغلال «الرواية الشفوية» واستثمارها في حقل الدراسات الإفريقية، يُحوجنا إلى صبر السالكين والمريدين، ودون أيّ رغبة في استصعاب الأمر أو نزوع لاستهجانه، ماذا يضيرنا لو استنجدنا بأقطاب التصوف، علّ ذوقهم يمكّننا من النفوذ إلى كنه الرواية الشفوية، ويسعفنا في تذوّق الكلمة- الإنسان أو الإنسان- الكلمة! ■

---

(١) جان فانسينا: «المأثور المنقول ومنهجيته»، ضمن (تاريخ إفريقيا العام)، (ج١- الفصل ٧/ ص ١٥٦-١٦٥).
Dierk (L.), Le Diwane des sultans du [Kanem-] -Bornu, p. 151-152.

(٢) تبدو جدية المشكل الذي نطرحه واضحةً حتى لدى الباحثين المنتمين لوسط اجتماعي شفاهي أصلاً، مثل المجتمع الشنقيطي، وحسبنا هنا استحضار الأطروحة المتميزة لمحمد المختار ولد السعد لنتبين مدى عمق المشكل، فالإحالات المتعلقة بالرواية الشفوية، التي استعان بها في دراسته، تقل نسبتها عن ٥٪ من مجموع إحالاته البالغ عددها (١٧٠٥)، علماً أنّ الفضاء الزماني للدراسة يتعلق فقط بالقرنين ١٨ و١٩م، فيما يغطي الفضاء المكاني للدراسة مجال إمارة الترارزة (الواقعة في منطقة القبلة)، التي كانت وما زالت على اتصالٍ مباشر بالسودان، انظر: محمد المختار ولد السعد: إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من ١٧٠٣ إلى ١٨٦٠، مرجع سابق. وينظر كذلك: الانتقاد اللاذع الذي وجهه أحد الباحثين من ذوي الأصول الفلانية، للقوّالين المحتكرين للرواية الشفوية: عمر محمد صالح، ١٩٩٣م: الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإسلامي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص (٣٣-٣٤).

(٣) Gaybor (Th.), 2010, Sources orales histoire africaine: Approches méthodologiques, p. 83.